الرابط الاجتماعي في تونس ومحددات التضامن زمن الأزمة

د. قيس تريعة

باحث بوحدة البحث توارث انتقالات وحراك، جامعة تونس– تونس

تاريخ الإرسال:2023/12/21 تاريخ القبول:2024/03/15

ملخص: يهدف هذا البحث الى رصد التأثيرات المحتملة للتضامن التقليدي زمن الأزمة من داخل فضاء العيش المشترك "الحومة". كما تبحث في محددات بروز أشكال من التضامن ما بين الأحياء المتجاورة زمن الاحتجاج. وتعمل الدراسة على تتبع علاقة الأزمة ببروز التضامن التقليدي وذلك من منظور انثروبولوجيا الفضاء التي تدرس علاقة الفرد بفضاء العيش المشترك، إضافة الى مفهوم الرابط الاجتماعي وتحديدا رابط المشاركة الاختيارية. حيث خلصت الدراسة الى أن خصوصية المجتمع التونسي والتحولات الطارئة على البنى العائلية والقرابية ساهمت في رسم الحدود الفاصلة بين انخراط الفرد في الفردانية وانتقاله للبنى التقليدية، ليتحوّل زمن الأزمة الى حدث تُستدعى في خضمّه مؤثرات التضامن التقليدي، وتتراجع تاركة المجال لمظاهر الفردانية بزوالها. وأهمية ممارسات الفاعلين في فهم التحولات الطارئة على علاقة الفرد بالمجموعة وأثر ذلك في البنى العائلية والقرابية، فهي تحركات داخل الفضاءات المحلية ترتبط أساسا بالدفاع عن انتماء أو استنكار للظلم وعدم المساواة.

الكلمات المفتاحية: التضامن، الرابط الاجتماعي، الأزمة، الحومة، تونس.

The social bond in Tunisia and the determinants of solidarity in times of crisis

DR. KAIS TRIAA

Researcher for the unit Transmission Transition Mobility, University of Tunis

Abstract: This research aims to monitor the potential effects of traditional solidarity in times of crisis from within the coexistence space "Alhouma". It also examines the determinants of the emergence of forms of solidarity between neighboring neighborhoods at the time of protest. The study traces the relationship of the crisis to the emergence of traditional solidarity from the perspective of space anthropology, which studies the relationship of the individual to the space of coexistence, in addition to the concept of social link, specifically the link of voluntary participation. The study concluded that the specificity of Tunisian society and the changes taking place in the family and kinship structures contributed to drawing the boundaries between the individual's involvement in individualism and his transition to traditional structures, so that the time of crisis turns into an event in which the influences of traditional solidarity are summoned, and they recede, leaving room for manifestations of individualism with their disappearance. The importance of the actors' practices in understanding the transformations occurring in the individual's relationship with the group and the impact of this on family and kinship structures, as they are movements within local spaces that are mainly linked to defending affiliation or denouncing injustice and inequality.

Keywords: Solidarity, Social bond, Crisis, El Houma, Tunisia.

مقدمة:

يتعلق موضوع هذه الورقة برصد وتتبع ممارسات الفرد زمن الأزمات لنستكشف عبر ذلك الروابط الاجتماعية وأشكال التضامن الدفينة من داخل فضاء العيش المشترك ممثل في "الحومة"، وما بين الأحياء المجاورة لها من خلال تتبع ومواكبة لسلوكيات الأفراد في خضمّ موجة حراك احتجاجي امتدت على مدار أسبوعين في مدينة "تينجة" من ولاية بنزرت التونسية في شهر أوت من سنة 2022 على خلفية وفاة أحد متساكني المنطقة بعد مطاردة أمنية. فقد تحول فعل الاحتجاج الذي رافق الحدث الثوري في تونس منذ سنة 2011، في شكل من أشكاله الى ممارسة "شرعية". فعندما نستذكر هذا المفهوم نستدعي أساسا ارتباط استمراريته بتحقق أهدافه، إضافة الى زمان ومكان اندلاعه. فالأحياء الشعبية كانت ولاتزال فضاء ملائم لاحتضانه، حيث يلعب إحساس قاطنيها بالإقصاء والتهميش دورا حاسما في ذلك (خواجة، الممارسات الثقافية ودورها في اندلاع الثورة في ولايتي سيدي بوزيد والقصرين، 2014).

اعتبارا لما تقدّم، نسعى من خلال هذا البحث الى نتجاوز خلفيات ومآلات الحراك الاحتجاجي الذي شهدته مدينة "تينجة" ذات صيف من سنة 2022، لتتخرط في تجربة ميدانية مثيرة، واكبنا عبرها تطوّر ممارسات متساكني حومة "الحواته" (تسمية تطلق على أحد أحياء مدينة "تينجة" وذلك لارتباط متساكنيه بممارسة مهنة صيد السمك "الحوت في اللهجة الدارجة التونسية" ومن هنا جاءت التسمية)، من منظور دورها في امتداد الحراك الاحتجاجي في الزمان والمكان، وباعتبار محددات وأسباب اندلاعه وافدة من حي مجاور ممثل في"دُوّار البيليك" (تسميته نابعة من اللهجة الدارجة التونسية، تحيل في هذا السياق الى كون منازل الحي بُنِيت على أراض تعود ملكيتها للدولة). وتتعلق هذه التحولات في الأساس بتداخل وتشابك روابط القرابة والجوار بين قاطني الأحياء المذكورة، ليتحوّل زمن الأزمة والاحتجاج في شكل من أشكال الى لحظة يتجلى في خضمها التضامن المابيني.

يرتبط الفضاء العام واحتلال الشارع بالاحتجاجات بهدف تلبية مطالب سياسية، اجتماعية وحتى اقتصادية.إلخ، ليتحوّل بذلك الى وسيلة اثبات وجود عبر ممارسات ورمزيات

من أهمها قطع الطريق واشعال العجلات المطاطية، ما حوّل الفضاء (الشارع الرئيسي) الفاصل بين الحيّين الى رهان تتقابل فيه إرادة المحتجين والسلطة ممثلة في قوات الأمن.

نتجاوز من خلال هذا الطرح خلفيات ومآلات هذا الحراك، لننتقل لمحاولة تحديد التأثيرات المحتملة للروابط الأسرية وعلاقات القرابة والجوار والتضامن في امتداد أشكال التقابل وفضاءاته، إضافة الى مساءلة ما تولّد عنه من دلالات ورمزيات. حيث تمثل هذه الأزمة التي شهدتها "الحومة" منطلقا مهما لفهم علاقة الفرد بمحيطه من منظور أن ممارساته إستدعت في شكل من اشكالها تضامنات تقليدية غذّاها الصراع والتقابل مع قوّات الأمن من خلال رسم لحدود مجال السيطرة، إضافة الى رمزية مشاركة العنصر النسائي (الأمهات) ومعاضدته للتحركات الاحتجاجية. حيث مثل امتداد هذه الممارسات للأحياء المجاورة شكل من اشكال التضامن عبر خيط ناظم تغذيه علاقات القرابة والنسب والجوار.

تستند هذه الدراسة في منهجها على نقد مزدوج، نوظّف من خلاله مفاهيم انثروبولوجيا الفضاء، إضافة الى مفاهيم الرابط الاجتماعي. لنتناول زمن الاحتجاج باعتباره أزمة ولحظة تضامن، أتاحت بروز روابط اجتماعية تقليدية حوّلت فضاء العيش المشترك الى رهان بين متساكني هذه الأحياء وقوات الأمن. حيث ننطلق من فرضيتين اثنين:

-ساهم زمن الأزمة وامتداد روابط القرابة والجوار في تغذية الحراك الاحتجاجي وانتقاله من فضاء الى آخر.

-مثلت "الحومة" فضاء للعيش المشترك، غير ان امتداد الروابط الاجتماعية ساهم في بروز التضامنات التقليدية.

1- اعتبارات نظرية ومنهجية

1-1 التضامن الاجتماعي في السياق التونسي:

ساهمت سياقات الثورة التونسية في التطبيع مع أشكال مختلفة من الاحتجاج والذي أخذ في حالات كثيرة طابع عنيف حوّل أحياء وأحيانا مدن بأكملها الى حلبة صراع بين قوّات

الأمن والمحتجين. تختلف خلفيات اندلاعها من وطنية مثل الاحتجاجات التي رافقت الأزمة السياسية والاقتصادية سنة 2014، الى سياقات محلية مثل قطع الماء الصالح للشراب عن مدينة "أوتيك" من ولاية بنزرت سنة 2022 وحتى فئوية مثل احتجاجات جماهير الفرق الرياضية.

في هذا السياق، تمثل الاحتجاجات التي انطلقت في مدينة "تينجة" وتحديدا من دوّار "البيليك" نموذج للبحث نتجاوز عبره الماكرو الحمّال لصور الاحتجاج وخلفياته السياسية والاجتماعية، وننخرط في قراءة للواقع الاجتماعي من منظور انثروبولوجي. حيث يطرح امتداد هذه الأزمة في الزمان والمكان، وخاصة انخراط متساكني "حومة الحواته" فيها، تساؤلات حول عوامل هذا التوسّع ودور الروابط الاجتماعية في ذلك. يندرج موضوع بحثنا في إطار النقاشات الدائرة حول علاقة الفرد بالجماعة في تونس. فالتحولات الطارئة على البنى الاجتماعية من منظور الانتقال من بنى تقليدية تتميز بطغيان الثقافة الجماعوية الى مجتمع حديث ميزته استقلالية الفرد عن العائلة والجماعة. يستدعي معالجة نعود عبرها للواقع الاجتماعي دون اسقاط لنماذج خارجة عن السياق المحلي.

تركّز التناول السوسيولوجي والانثروبولوجي لعلاقة الفرد بالجماعة في تونس بطرحين أساسيين. الأول، يدفع بأطروحة كونيّة وحتميّة الانتقال من مجتمع تقليدي الى آخر حديث ميزته تعزيز استقلالية الفرد وتراجع البُنى التقليدية على ضوء مدّ حداثي وانتشار لثقافة العمل وحرية التّدبّر من خلال التركيز على مظاهر الاستقلالية عن الجماعة والعائلة (المليتي، 2020). الثاني، يتناول الإشكال من منظور انثروبولوجي تاريخي ينطلق من جملة من التساؤلات حول مدى تأثير وفاعلية البنى التقليدية الكامنة، من ثقافة جماعوية وتضامنات تقليدية (الهرماسي، 2020) خاصة زمن المصاعب والأزمات التي تواجه الفرد والجماعة على حدّ السواء.

من هذا المنطلق، مثّلت الأزمة التي شهدتها "الحومة" فرصة لتوسيع مجال المشاهدة والفعل الانثروبولوجي من خلال الحفر في اللامرئي عبر أدوات بحثية تتيح لنا مواكبة

واستنطاق واقع اجتماعي سريع التغيير. فمضمون المقابلات التي أجريناها مع فاعلين انخرطوا في الحراك الاحتجاجي وملاحظاتنا الميدانية تحتمل قراءتان، الأولى، ربط بسياقات الثورة التونسية وما أعقبها من احتجاجات نتيجة توسع دائرة الفقر والتهميش لتتشكّل عبر ذلك ديناميكية محلية مُنتجة للهامشية الاجتماعية بكل أبعادها، قامت على ثلاثة أضلاع: الانقطاع المدرسي، والبطالة والانخراط في الاقتصاد الموازي (بن زينة، 2019). والثانية، اعتماد مفاهيم ومقاربات تفتح للباحث مداخل جديدة لتفسير التحولات الطارئة على البنى والرابط الاجتماعي زمن الفردانية الاجتماعية وتأثيرات ذلك على العلاقة بين الفرد والبنى العائلية والقرابة والجوار.

ميّز دوركايم في دراسته للمجتمع بين تقليدي وحديث اعتمادا على علاقات التضامن التي تحكمه، فالمجتمع التقليدي ميزته تضامن آلي تكون فيه البنى العائلية وعلاقات القرابة هي المسيطرة؛ أمّا الحديث، فيكون التضامن داخله عضوي يقطع فيه الفرد عن الجماعة ويستقل عن العائلة. وهذه هي الاشكالية التي تناولها دوركهايم في أطروحته للدكتوراه حول تقسيم العمل الاجتماعي والتي نشرت سنة 1893. فهي مسألة العلاقات بين الفرد والمجتمع. كيف يمكن للفرد، في حين أنه يصبح أكثر استقلالية، أن يعتمد بشكل أوثق على المجتمع؟ ألا تعني الفردانية قطيعة الفرد عن المجتمع؟ وبذلك يتحرر من القيود الأسرية والثقافية والسياسية والدينية؟ فكيف له أن يكون أكثر ارتباطًا بالمجتمع في نفس الوقت؟ (Émile Durkheim, 1893).

بالعودة لواقع الحال، تتفق مجمل الدراسات السوسيولوجية والانثروبولوجية كون المجتمع التونسي حديث العهد بالحداثة وأن تحديث المجتمع كان ملازما لمرحلة الاستعمار الفرنسي بهدف احكام قبضته على ثروات البلاد، وتواصل زمن دولة الاستقلال من منظور ركوب موجة الحداثة وكونيّتها. فمسارات التطور الاجتماعي والتاريخي للمجتمعات الغربية والانتقال من مجتمع تقليدي الى حديث هو ما تأسس عليه الطرح السوسيولوجي لدوركايم والعديد من علماء الاجتماع.

2-1- الرابط الاجتماعي ومقومات التضامن المابيني:

في تونس اليوم، وبالرغم من التحولات الطارئة على البنى الاجتماعية نتيجة سياقات التحديث، ومظاهر استقلالية الفرد عن الجماعة والعائلة، إلا انه لازالت هناك جذور للروابط التقليدية، من قبيل التقسيم الثنائي لسكان مدينة تونس: "براينية" و"بلدية" (بوطالب، 2002) والتصنيفات الجهوية "سواحلية، صفاقسية. " وحتى ذات الإرث القبلي مثل "حومة الفراشيش. " والتي تقع في مدينة "الدندان" التابعة لولاية منوبة وهي احدى ولايات تونس الكبرى وتحمل اسم احدى أكبر القبائل. تمتدّ أحيانا هذه التقسيمات الى داخل المدن والأحياء نفسها، فالمثال الذي نشتغل عليه يحمل تصنيف داخلي للأحياء، فحومة "الحواته" و"دُوّار البيليك" هو في الأصل تصنيف اجتماعي على أساس المهنة والطبقة الاجتماعية لقاطنيها.

في هذا السياق الاجتماعي المركّب والمعقّد، نسعى الى تحديد مقوّمات التضامن المابيني زمن الأزمة عبر الاشتغال على العلاقة بين مفهومي الحماية والاعتراف كما صنّفها سيرج بوكام في كتابه الرابط الاجتماعي. حيث يؤكّد أن هذا المفهوم لا ينفصل اليوم عن وعي المجتمعات بأنفسها ويمكن اعتبار استخدامه الحالي تعبيرًا عن تساؤل حول ما يمكن أن يجعل المجتمع في عالم يبدو فيه السير نحو الفردانية أمرًا لا مفر منه. هل لا يزال المجتمع يتألف من أفراد مستقلين اجتماعيًا؟ وإذا كان الأمر كذلك، فكيف ذلك؟ حاول علماء الاجتماع الإجابة على هذا السؤال من خلال تقديم تفسيرات مبنية على تحليل تطور المجتمعات البشرية، ومن ثم أشارت فكرة الرابط الاجتماعي إلى رؤية تاريخية لكل من منظور العلاقة بين الفرد والجماعة المحلية، وظروف التغيير الاجتماعي طويل الأمد من جهة أخرى. ففي المجتمعات الريفية، التي هي أكثر تقليدية بحكم تعريفها، يتطور التضامن بشكل أساسي على مستوى الأسرة الممتدة ويرتبط الأفراد أيضًا بالعائلة من أجل حمايتهم، ويرتبطون أيضًا بالاعتراف بهم، وبالتالي أصبحت الهوية العائلية أساس الاندماج الاجتماعي في المجتمعات الحديثة وأصبحت النماذج المؤسسية للاعتراف فردية (Paugam, 2009).

يقترح **بوكام** تحديد كل نوع من أنواع الروابط الاجتماعية من منطلقي الحماية والاعتراف. الروابط متعددة وذات طبيعة مختلفة، لكنها توفر جميعها للأفراد الحماية والاعتراف الضروريين لوجودهم الاجتماعي. تشير الحماية إلى جميع أشكال الدعم التي يمكن للفرد حشدها في مواجهة الأزمات (الأسرة، والمجتمع، والمهنية، والموارد الاجتماعية، إلخ.)، ويشير الاعتراف إلى التفاعل الاجتماعي الذي يحفّز الفرد من خلال تقديم دليل على وجوده ومن تقييمها من خلال نظرة الآخرين. يلخّص تعبير "الاعتماد على"، ما يمكن للفرد أن يتوقعه من علاقته بالآخر والمؤسسات من حيث الحماية، بينما تعبير "الاعتماد على" يعبر عن التوقع بالاعتراف(Paugam, 2009) .

تأسست محددات التضامن بين حومة "الحواته" و"دُوّارالبيليك" على طلب الدعم والمساندة في مواجهة قوّات الأمن باعتبارها تهديد واعتداء على مجال تتقاطع وتتشابك عبره روابط الجوار والنسب، يقول أحد المستجوبين في توصيفه لحظة طلب الدعم عبر مكالمة هاتفية " فينكم "حومة"؟ راهم هدّوا علينا" (مقابلة، 2022)، ما يعني في هذا السياق "هجموا علينا" والمقصود هنا أن قوّات الأمن اخترقت مجاليًا أحد الأحياء. ففي لحظة يتجاوز الفاعل محددات الانتماء المجالي لهذه الحومة أو الحي، ليتحوّل كلا المجالين الى وِحدة يرمز لفظ "حومة" الى المنتمي إليها باعتباره توصيف يطلقه متساكنو نفس الحي من الشباب على أقرانهم. غير أنه حُمِّل بشحنة رمزية اضافية في هذا السياق، ليتحوّل الى كنية وتوصيف للمنخرطين في مواجهة قوات الأمن من "حومة الحواته" و"دوّار البيليك" على حدّ السواء. حيث لعبت ظرفية الأزمة دورا حاسما في بروز روابط الانتماء وتغذية رابطة المشاركة الاختيارية باعتبارها تدخل في إطار التنشئة الاجتماعية خارج الأطر الأسرية والتي يتواصل عبرها الفرد مع أشخاص آخرين تنعدم معرفته بهم في إطار مجموعات ومؤسسات مختلفة. مجالات هذا التنشئة متعددة: الحي، ومجموعات الأصدقاء، والمجتمعات المحلية، والمؤسسات الدينية، والرياضية، والثقافية، إلخ. (Paugam، 2009). لقد صاغ سيرج باوجام تصنيفًا للروابط الاجتماعية يعتمد على بعدين: من ناحية، الحماية التي توفرها الروابط المختلفة؛ ومن ناحية

أخرى، الاعتراف الذي يحصل عليه الأفراد من خلالهم. في الحالة الأولى، تحدد الروابط "على من" و"على ماذا" يمكن للأفراد الاعتماد. وبعبارة أخرى، من هم الأشخاص والمجموعات الذين يمكن أن يجدوا منهم موارد مفيدة لتوجيه أنفسهم في حياتهم. وفي الحالة الثانية، تحدد الروابط الاجتماعية "من هم" الأفراد، أي من يتم الاعتراف بهم كأشخاص فريدين ويتم تقديرهم بسبب صفاتهم. ويتعلق هذا الاعتراف بالمجالات الرئيسية للحياة الاجتماعية. حيث يحتاج الجميع إلى ما يكفي من احترام الذات حتى يتمكنوا من بناء هويتهم بشكل إيجابي. وهكذا، يبدو أن السعي للاعتراف يلقي الضوء على العديد من الظواهر. يمكننا أن ندرك ذلك في مختلف الحركات الاجتماعية للدفاع عن الحقوق، ولكن أيضًا في الظواهر السياسية مثل "التحركات الاحتجاجية" أو حتى في أشكال الهوية أو الانسحاب المجتمعي، والتي ترتبط بوضوح بالتضامن الآلي. حيث تمثل ممارسات الفاعلين زمن الأزمة التي شهدتها "الحومة" منطلقا مهم لفهم التحولات الطارئة في علاقة الفرد بالمجموعة وأثر ذلك في البنى العائلية والقرابية، باعتبار هذه التحركات داخل الفضاءات المحلية محدد أساسي يرتبط دائما بالدفاع عن انتماء أو استنكار للظلم وعدم المساواة(Siblot, 2015) .

2- الحومة زمن الأزمة، فضاء للتقابل والتضامن

2-1- الأزمة ومحددات التضامن الجماعي:

تمثل "الحومة" تجمع بشري، يشكل وحدة إدارية تضم عدد من العائلات تعود في الأغلب الى نفس الأصول الأبوية أو الجغرافية، حيث تلعب علاقات القرابة والجوار دورا مهما في توطيد الروابط بين السكان بتضافر عامل الزمن والإقامة في نفس المجال، لتتشكل عبر ذلك روابط اجتماعية وانتماء للحومة وتتحول بذلك الى شكل من أشكال الفضاء العام لقاطنيها (Remaoun و Khouaja، 2021). كما توصف بأنها "جزء من المدينة" من حيث أنها تشكل مساحة "يمكن تحديد موقعها"، فلكل "حومة" أو "حي" تسمية وتوصيف يطلق عليها بموازاة التصنيف الاداري. لا يمكن إنكار أن هذا التصنيف هو ما يميز أغلب الاحياء في مدينة تينجة، حيث نجد: حومة "الحواته"، حي "العريش"، حومة "الوصايفية"، حومة "لنقار La

gare"، دوّار "البيليك، إلخ. وما يضفيه ذلك على مبادئ العيش معًا باعتباره عملية ديناميكية تحددها الاطراف الفاعلة لتعزيز الاندماج، فضلاً عن الشعور بالأمان وتعزيز الانتماء سواء كان ذلك داخل الحي أو الحومة.

صورة عدد (1)

صورة توضّح الموقع الجغرافي لـ"حومة الحواتة" و"دوّار البيليك"

المصدر: من اعداد الباحث، تطبيقة "قوقل ماب" لتحديد المواقع.

في هذه الحالة، ساهم التقارب الجغرافي وروابط القرابة والجوار في امتداد البنى العائلية عن طريق النسب والمصاهرة بين متساكني حومة "الحواته" و"دوّار البيليك". فرغم ما يتميز به كلا الحيين من استقلالية للعائلات والأفراد وتقسيم للعمل، الا ان الاشتراك في مجال التنشئة الاجتماعية وارتياد نفس المؤسسات سواء التعليمية أم الثقافية. ساهم في نسج روابط مشتركة تبرز خاصة في ممارسات الفئة الشبابية. فالمجال جزء من الفضاء يتكيف معه الفرد من خلال أنشطته وتمثلاته، ليكتسب مع مرور الوقت شخصيّة تميزه (Dortier، 2007). فرابط المشاركة الاختيارية كما حدده **بوكام**، يمثل عامل أساسي في امتداد الفعل الاحتجاجي من "دوّار البيليك" الى حومة "الحواته". حيث يمثل هذا الامتداد في شكل من اشكاله، طلب دعم ومساندة لمواجهة خطر خارجي ممثل في قوّات الأمن. فعندما يستحضر الشباب "الشارع" أو "الحومة"، فهم يستذكرون مكان للتنشئة ومجال لتعبيراتهم الاجتماعية، فهو عالمهم

الاجتماعي الخاص، فضاء للاستقلالية والحرية من السلطة الأبوية والعائلية، وهو كذلك فضاء للاحتجاج (Remaoun و Khouaja، 2021).

في هذا السياق، طرح عبد اللطيف الهرماسي تساؤل نعتقد أنه من الأهمية بمكان ان نسوقه كما جاء على لسانه: هل أن الثقافة الجماعوية والتضامنات التقليدية مأثرة وفاعلة، بل مطلوبة لمجابهة المصاعب والأزمات؟ الإجابة على هذا الطرح الإشكالي الذي يعرضه **الهرماسي**، نعتقد أن الأزمة التي شهدتها "الحومة" توفر الإجابة على الجزء الثاني منه. فمحددات التضامن التقليدي من بروز البنى العائلية وروابط القرابة يمكن تلخيصها في الصورة عدد (2) والتي تبرز تواجد العنصر النسائي (الأمهات) الى جانب الفئة الشبابية في مقابلة ومواجهة مع قوّات الأمن.

الصورة عدد (2)

مشهد يوثق فضاء التقابل بين سكان حومة "الحواته" ودوّار البيليك مع قوّات الأمن

المصدر: من اعداد الباحث اعتمادا على فيديو منشور في موقع فيسبوك: "تينجة بنزرت عشية اليوم تجدد الاحتجاجات وقطع الطريق (**FB**، 2022).

تتصف هذه الأزمة بجملة من المميزات، مكنتنا من رصد الممارسات المستجيبة لمحددات التضامنات التقليدية، فالتتبع الكرونولوجي للأحداث والمعرفة الدقيقة لسياقاتها مككنا من تحديد المتغيرات الدالة على بروز أشكال التضامن التقليدية. فالحديث عن "فك الارتباط

بالأسرة ."أو تراجع دورها، تقابله وقائع ميدانية تدعو الى مراجه هذا الطرح. فقد أخذ الحفاظ على التضامنات العائلية المتبادلة والتضامن بين الأجيال زمن الأزمة أشكالًا مختلفة حسب الخلفية الاجتماعية، لتظل الأسرة في صدارة مؤسسات التنشئة التي توفر الدعم المعنوي والمادي والرمزي، بما في ذلك بين الأجيال الشابة التي تحاول حتى الآن لتحرير أنفسهم من سيطرة الأسرة (**Madoui**، 2012).

2-2- الرابط الاجتماعي ومحددات التضامن المابيني:

سنحاول فيما يلي، تفسير النتائج الميدانية المستخلصة انطلاقا من نموذج مقارن يفسّر امتداد الروابط الاجتماعية التقليدية وبروزها داخل المجتمعات الحديثة. ففي كتابه "إنتاج رجال عُضماء"، وصف عالم الانثروبولوجيا الفرنسي **موريس قودلييه** تنظيم قرى "بارويا" في غينيا الجديدة مستخلصا قواعد صارمة تحدد تقسيم فضاءات العيش داخلها، فداخل المنازل نجد تقسيم رمزي للفضاء (Dortier، 2007). هذه التقسيمات والرمزيات التي حددها **قودلييه** عبر دراسته لبنية مجتمع تقليدي، امتدت لتجد لها موطئ قدم في المجتمعات الحديثة عبر أشكال متجددة. ففي كتابه "قلب الضاحية"، يتساءل **دافيد لوبوتر** عن ظهور فضاءات لمجموعات شبابية في أحياء ومناطق من مدينة باريس الفرنسية. فكل فصيل أو زمرة يتحوّز عدد من المواقع ويحدد كذلك منطقة الأعداء عبر دلالات ورمزيات خاصة بها.(Fonseca, 2001) هذه التقسيمات الرمزية داخل فضاءات العيش المشترك ارتبطت بالمجتمعات التقليدية، غير أن بروزها زمن الفردانية الاجتماعية في المجتمعات الحديثة هو ما يستدعي الوقوف عنده.

فالمحددات التي وضعها **سيرج بوكام** عند تصنيفه للرابط الاجتماعي تمحورت حول البعدين الأساسيين له، وهما الحماية والاعتراف. فمن الضروري اعتبار مفاهيم التضامن أساس الرابط الاجتماعي، أي الصلة بين الإنسان والآخرين، بين الإنسان والمجتمع. إضافة الى ما أطلق عيه رضا **بن عمر**، شبكات التضامن الموازية، تمثل الطروحات السابقة مدخل لتحديد أشكال التضامنات والروابط الاجتماعية المساهمة في امتداد الحراك الاحتجاجي في الزمان والمكان.

يحدد سيرج بوكام أربعة أصناف من الرابط الاجتماعي(Paugam, 2009) :

1. رابط الانتماء (العلاقة بين الوالدين والطفل)
2. رابط المشاركة الاختيارية (العلاقة مع مجموعات الأقران.)
3. رابط المشاركة العضوية (علاقات العمل)
4. رابط المواطنة (علاقات ذات طابع محلي وسياسي)

من هنا، يمكن اعتبار زمن الأزمة ظرفية مولّدة لشبكات تضامن موازية زاد في زخمها رابطة المشاركة الاختيارية. فالتحولات في علاقة الفرد بالبنى العائلية ساهم في تغذية الإحساس بالانتماء للحومة لدى الفئة الشبابية، وهذا ما يفسر الدور الذي لعبته رابطة المشاركة الاختيارية من طلب الدعم والحماية ومساهمة ذلك في امتداد مجال الفعل الاحتجاجي من "دوّار البيليك" الى حومة "الحواته". باختصار، يدفع تنوع التبادلات، وتنوع الانتماءات، وتنوع الشخصيات، والمسارات، والتطلعات، والأذواق والاحتياجات الى زيادة وتنوع الروابط الاجتماعية، وهذه الأخيرة تساهم في التمايز بين الأفراد. ومع ذلك، فمن خلال هذه الروابط أيضًا يتم تحديد الأوضاع الاجتماعية وبناء الهويات. وبالتالي، فمن خلال هذه الروابط تكون الأوضاع والهويات الفردية موضوع الاعتراف الجماعي.

3-أزمة على مشارف "الحومة": استدعاء للتقليدي وتجاوز للفرداني

نناقش في هذا الجانب مسألة في غاية من الأهمية والتعقيد، اشتغل عليها علماء الاجتماع والانثروبولوجيا في تونس ولايزالون، مرجعنا في ذلك الاستنتاجات السابقة التي توصّلنا إليها. والمحددات الأساسية للنقاش متعلقة أساسا بالتصنيف المحتمل للمجتمع التونسي، انطلاقا من أشكال التضامن التي تحكم البنى العلائقية داخله. هل نسلّم بانخراطه في الفردانية الاجتماعية تحت وطأة التحديث والتحولات الطارئة على علاقة الفرد بالجماعة؟ أم تكون السياقات التاريخية لعملية التحديث مفتاح لتفسير استدعاء أشكال من التضامن التقليدي سياقيّا؟

في حومة "الحواته"، وهو المثال الذي اشتغلنا عليه، تطغى محددات الفردانية الاجتماعية من تقسيم اجتماعي للعمل وبروز للعائلة النواتية (استقلالية الزوج والزوجة) عن البنى الاجتماعية داخلها. غير انه من المثير انثروبولوجيا تشبث هؤلاء الافراد بانتمائهم لل"الحومة"، فيسعى المقبل على الزواج من متساكنيها مثلا الى امتلاك مسكن أو تسوّغه داخلها، أو غير بعيد عنها ان تعذر ذلك. لتنتج هذه الديناميكية الاجتماعية رابط اجتماعي انخرط في ظاهره الفرد في محددات الفردانية، غير أن التشبث بالانتماء لفضاء العيش المشترك يمثّل خيط ناظم يغذي أشكال التضامن التقليدي.

بطبيعة الحال، يمثل التحليل السابق ترجمة وقراءة لتمثلات متساكني "الحومة" عند اجراءنا للمقابلات، في زمان وفضاء مشحونين طغت عليهما مشاعر ودلالات التضامن بين متساكنيها، والتي تراجعت وانكفأت بمجرّد زاول مسبباتها.

ترسم هذه الصورة الحدود الفاصلة بين انخراط الفرد في الفردانية وانتقاله للبنى التقليدية، ليتحوّل زمن الأزمة الى حدث تُستدعى في خضمّه مؤثرات التضامنات التقليدية، وتتراجع تاركة المجال لمظاهر الفردانية بزوالها. التوصيف السليم لهذه الوضعية، عبّر عنه **مولدي الأحمر** بحالة "البين بين" (الأحمر، 2020) عند مناقشته لمسألة الفردانية في المجتمع التونسي باعتبارها لا تنتج بالضرورة قطيعة مع الحياة الجماعوية (الأحمر، 2020).

من هنا تُطرح بقوّة مسألة خصوصية المجتمع التونسي، لأن جدلية فرداني/تقليدي في علاقة بأشكال التضامنات تناولتها كلاسيكيات علم الاجتماع والانثروبولوجيا من دوركايم في تقسيم العمل الاجتماعي، الى جورج زيمل حول دراسة أشكال التنشئة الاجتماعية، ونوربرت إلياس في مجتمع الأفراد، من منظور رصد تحولات علاقة الفرد والجماعة في المجتمع الفرنسي والألماني زمن الثورة الصناعية والانتقال للحداثة.

أما الطرح الميكروانثروبولوجي للمسألة، يمكن مناقشته على مستويين: الأول يتعلق بالتساؤل حول محددات بروز الثقافة الجماعوية ومدى تأثيراتها المحتملة زمن الأزمات. والثاني، نعتمد عبره مفهوم شبكات التضامن الموازية كما عبّر عنها **رضا بن عمر** في دراسته حول

الرابط الاجتماعي في تونس، حيث يناقش هذه الإشكالية من خلال التركيز على البنى العائلية من منظور جيلي، ليحدد عبر ذلك شكلين رئيسيين من التضامنات بنى عليهما أطروحته: التضامن المابين–جيلي والتضامن خارج البنى العائلية. هذه المفاهيم وظفها **بن عمر** في تقابل مع أطروحة ترهّل الرابط الاجتماعي وطغيان الفردانية الاجتماعية، حيث يتحوّل الاعتراف الاجتماعي الى رهان رمزي للتضامن وللرابط الاجتماعي (Ben Amor، 2011).

يعكس الطرح السابق مسار فكري متشعّب فرضته تعقيدات الظاهرة، غير أنه من المثير تقاطع محددات الاعتراف محليا داخل "الحومة" مع محدداتها كونيّا من منظور **بوكام**. لتتحول حالة "البين بين" الى شكل جديد من التضامن يمتزج فيها التقليدي بالحديث، تفرضه السياقات الاجتماعية المحلية ومحددات الرابط الاجتماعي من حماية واعتراف، لتخرجه في شكل موازي.

خاتمة:

تركز اهتمامنا في هذه الدراسة على رصد محددات بروز وامتداد أشكال التضامن زمن الأزمة من فضاء الى آخر ومن "حومة" الى أخرى أخذا بعين الاعتبار خصوصية المجتمع المحلي. في الحالة التونسية أخذ الحفاظ على التضامنات العائلية المتبادلة والتضامن بين الأجيال زمن الأزمة أشكالًا مختلفة سياقيّا، فقد أوضحت نتائج هذه الدراسة أهمية تناول زمن الأزمة باعتباره ظرفية مولّدة لشبكات تضامن موازية يزيد في زخمها رابطة المشاركة الاختيارية. حيث ساهمت التحولات الطارئة على علاقة الفرد بالبنى العائلية في تغذية مشاعر الانتماء للحومة لدى الفئة الشبابية، ما يفسر الدور الذي لعبه رابط المشاركة الاختيارية في امتداد فضاء الفعل الاحتجاجي من "دوّار البيليك" الى حومة "الحواته".

يرسم زمن الأزمة الحدود الفاصلة بين انخراط الفرد في الفردانية وانتقاله للبنى التقليدية، ليتحوّل زمن الأزمة الى حدث تُستدعى في خضمّه مؤثرات التضامنات التقليدية، وتتراجع تاركة المجال لمظاهر الفردانية بزوالها. غير أنه من المثير انثروبولوجيّا تقاطع محددات الاعتراف محليا داخل "الحومة" مع محدداتها كونيّا من منظور **بوكام**. لتتحول حالة

"البين بين" الى شكل جديد من التضامن يمتزج فيها التقليدي بالحديث، تفرضه السياقات الاجتماعية المحلية ومحددات الرابط الاجتماعي من حماية واعتراف، لتخرجه في شكل موازي. هذا ما يستدعي توسيع مجال المشاهدة الميدانية والتركيز على التحولات الطارئة على البنى العائلية والقرابية، لا من منظور التسليم بحتمية الانتقال الى الفردانية الاجتماعية بل من خلال الحفر في البنى التقليدية الكامنة والمحددات السياقية والمحلية المخفّزة لبروزها، أخذا بعين الاعتبار خصوصية المجتمع المدروس.

قائمة المراجع

1.Claudia Fonseca. .(2001) David Lepoutre, Cœur de banlieue. Codes, rites et langages . *L'Homme*159-158 ،.

2.Émile Durkheim. .(1893) *De la division du travail social 1991*. France: Puf.

3.Hassan Remaoun و ،Ahmed Khouaja .(2021) . Les mots au Maghreb : Dictionnaire de l'espace public . :تونس Mots passants.

4.Jean-François Dortier. .(2007) Le Dictionnaire des sciences humaines . Beyrouth: Edition Deltas.

5.Mohamed Madoui. .(2012) Ridha BEN AMOR, Les formes élémentaires du lien social en Tunisie. De l'entraide à la reconnaissance . *Insaniyat*56-55 ،.

6.Ridha Ben Amor.2011) .(*Les formes élémentaires du lien social en Tunisie. De l'entraide à la reconnaissance* . Paris: L'harmattan.

7.Serge Paugam. .(2009) *Le lien social .* France: Puf.

8.TuniSie FB. .(29 أوت, 2022). تم الاسترداد من فايسبوك: https://bit.ly/3L5XAh9

9.Yasmine Siblot. .(2015) *Sociologie des classes populaires contemporaines.* France: Armand Colin.

10.أحمد خواجة. (2014). الممارسات الثقافية ودورها في اندلاع الثورة في ولايتي سيدي بوزيد والقصرين. تأليف مولدي الأحمر، *الثورة التونسية: القادح المحلي تحت مجهر العلوم الانسانية* (صفحة 183). الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

11.عبد اللطيف الهرماسي. (2020). مسار الفردنة في تونس: بين الديناميات المجتمعية ومشروع النخبة الحداثوية. *عمران*، 66.

12.عماد المليتي. (2020). التحولات الاجتماعية والحريات الفردية لدى الشباب في تونس: أي علاقة؟. *عمران*، 28.

13.محمد علي بن زينة. (2019). إنتاج الهامشية: الانقطاع المدرسي والاقصاء الاجتماعي لدى الشباب في المناطق الحدودية التونسية–دراسة حالة غار الدماء. *عمران*، 102.

14.محمد نجيب بوطالب. (2002). ، *القبيلة التونسية: بين التغيّر والاستمرار*. تونس: كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس.

15.مقابلة. (28 أوت, 2022). مقابلة. (أحد المنخرطين في الحراك الاحتجاجي، المحاور)

16.مولدي الأحمر. (2020). أسئلة الفردانية في المجتمعات العربية: منعطفات معرفية واجتماعية وتاريخية متشعبة ولايقينية. *عمران*، 114.